تقديم المعونة والدعم

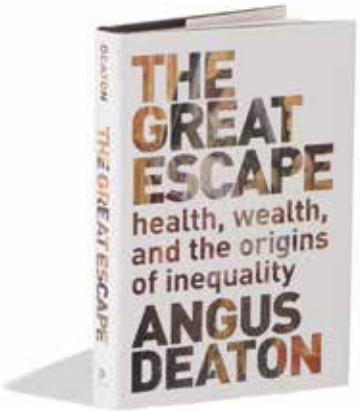

آنغس ديتون
Angus Deaton
الهروب الكبير
The Great Escape
الصحة والثروة ومصادر عدم المساواة
Health, Wealth, and the Origins of Inequality
Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 2013, 360 pp., $29.95 (cloth).

كتب أنغوس ديتون أستاذ الاقتصاد بجامعة برينستون كتابا أنيقا وثريا ومثيرا عن تاريخ التقدم المحرز في الولايات المتحدة والعالم في مجالي الصحة والرفاه المادي منذ قبل التاريخ وحتى الوقت المعاصر.

والهروب الكبير المشار إليه في العنوان هو الهروب من الفقر وسوء الصحة الذي حققه بالفعل بعض سكان العالم إلى حد كبير ويحاول تحقيقه معظم سكان العالم حاليا ولم تبدأ فيه مجموعة أقل حظا من الناس. ويصحبك هذا الكتاب في رحلة ميسرة وممتعة يسردها أحد خبراء العالم في مجال البيانات العالمية عن الصحة والدخل ويجعل من مناقشة الافتراضات والتحيزات والعيوب المتعلقة بهذه الإحصاءات قراءة ممتعة. ويرقى معظم الكتاب إلى كونه تحذيرا من وجود أوجه عدم يقين وحلول وسط لا مفر منها في جميع البيانات الاقتصادية والصحية، ولذلك لا ينبغي تصديق أي جزء منها تصديقا تاما.

وإذ يضع ديتون هذا التحذير في الاعتبار فإنه يعرض بإيجاز تاريخ التقدم المحرز على المستوى العالمي ومداه، فضلا عن أسبابه الرئيسية. ويدعي ديتون من بين جملة أمور أن الهروب من ارتفاع معدل الوفيات لا يرتبط إلا ارتباطا ضعيفا بالهروب من الفقر. ويشير إلى أن الثروة الخاصة الأكبر حجما لم تكن السبب الرئيسي في تحسن الصحة في الغرب. وتكمن الأسباب الرئيسية لذلك في الخدمات العامة الأفضل مثل المياه والمرافق الصحية. وفي الاقتصادات النامية خلال السنوات الخمسين الماضية، من الواضح أن الإجابة على السؤال «هل تشهد البلدان الأسرع نموا معدلات أسرع من حيث انخفاض وفيات الأطفال؟» هي «لا». وربما كان ينبغي أن يكون عنوان الكتاب حالات الهروب الكبيرة.

وعلى طريق التقدم، يشير ديتون إلى ارتكاب أخطاء غير ضرورية باسم مراقبة السكان على المستوى الدولي. ويسلط ذلك الضوء على هروب كبير آخر: خرجت جميع البلدان من فخ مالتوس المرتبط بعصر ما قبل الصناعة، عندما كان النمو السكاني يرتبط عادة بدخول أقل وصحة أسوأ.

وعودة إلى تركيز ديتون على الحدود التي تقيد فهمنا، فإنه يشير إلى أن الذين يبحثون عن مؤشرات بسيطة للسياسات المتعلقة بتعزيز نمو الدخل في البلدان التي تعاني من الاثار السلبية للتباين العالمي أو تلك المتعلقة بالحفاظ على التقدم الصحي في جميع أنحاء العالم سيشعرون بخيبة أمل. ويتناول ديتون حماقة البحث عن «مفتاح النمو» أو في الواقع مفتاح الكساد، ويشير إلى أن مثل هذه الجهود تحاول «أن تتوصل إلى تعميمات سخيفة استنادا إلى الصدفة. وقد فعلت شعوب الأتروسكان والكهنة الرومان نفس الشيء بأحشاء الدجاج.» ومع ذلك، يدعي ديتون أن المؤسسات المصممة خصيصا للصفوة «تعادي للنمو»، ولذلك يركز الكتاب على عدم المساواة.

ويتناول الهروب الكبير باستفاضة إحدى توصيات السياسات بشأن مساعدة فقراء العالم وهي خفض ميزانيات المعونة. ويرى ديتون أن المعونة لا تعزز النمو. ويشير إلى أن المعونة الوفيرة تمثل بالفعل «حاجزا أمام التنمية» ويمكن أن تدمر المؤسسات وتسمح للقادة بالحكم بدون موافقة المواطنين لأنهم ليسوا بحاجة إلى فرض ضرائب عليهم. ويؤيد ديتون بعض أنواع المعونة وأساليب تقديمها مثل تمويل تطوير التكنولوجيات الجديدة، بما في ذلك العقاقير على سبيل المثال. وهو يشير أيضا إلى أن «المعونة الخارجية أنقذت الملايين من الأرواح في البلدان الفقيرة» وخاصة عن طريق خفض وفيات الأطفال من الأمراض المعدية. غير أن دور المعونة في مجال الصحة محدود لأنها لا تساعد على بناء النظم الصحية الأساسية.

ومن الصعب بالفعل ادعاء أن المعونة حققت الكثير للنمو الاقتصادي في المتوسط في البلدان النامية. وحسبما يشير ديتون فإن أدوات السياسات العالمية الأكثر قوة تقوم بدور أكبر في دعم هذا النمو، بما في ذلك الهجرة وتحرير التجارة وإصلاح نظم الدعم. وقد ضاع جزء كبير من المعونة وربما معظمها في الماضي.

غير أن الأدلة التي تفيد بوجود أثر سلبي للمعونة ليست قوية للغاية هي الأخرى. ويشير تحليل خبراء صندوق النقد الدولي المؤخر (ورقة العمل رقم ١٨٦/١٢ الصادرة عن الصندوق) إلى أن المعونة في البلدان الفقيرة التي لديها مؤسسات ضعيفة تحل محل الضرائب وتكون بنفس قيمتها تقريبا. غير أن كل دولار إضافي من المعونة يخفض الضرائب التي تحصلها الحكومة بمقدار تسعة سنتات فقط في المتوسط في البلد المتلقي. وهناك أدلة تفيد بأنه حتى في البلدان المعتمدة على المساعدة التي تعاني من سوء نظم الحكم، فإن المعونة يمكن أن تساعد في بعض الأحيان على بناء النظم الصحية الأساسية. ومن عام ٢٠٠٤ إلى عام ٢٠١٠، زاد العمر المتوقع عند الولادة في أفغانستان من ٤٢ إلى ٦٢ سنة ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى برنامج مولته وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية وقامت بإدارته وزارة الصحة. وقدم هذا البرنامج خدمات صحية أساسية إلى ٩٠٪ من السكان.

وتمثل ملايين الأرواح التي أنقذتها المعونة ومشروعات المعونة الناجحة عبر العديد من القطاعات والبلدان، على الرغم من الإخفاقات العديدة، أسبابا لإصلاح نظم المعونة وليس تقليصها. ويمكن لهذا الإصلاح إلى جانب المزيد من الهجرة والتجارة الأكثر إنصافا مساعدة الملايين من الأشخاص على الانضمام إلى الهروب الكبير من الفقر المدقع وسوء الصحة التي أبرزها ديتون في بحثه وكتابه بشكل جيد للغاية.

تشارلز كيني
كبير زملاء بمركز التنمية العالمية
مؤلف كتاب: Getting Better: Why Global Development Is Succeeding and How We Can Improve the World Even More

إعادة تدوير مستقبل أفضل

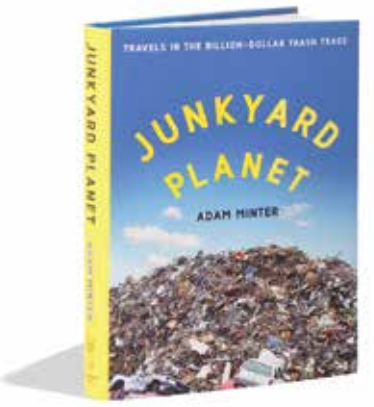

آدم مينتر
Adam Minter

كوكب المهملات
Junkyard Planet

رحلات في تجارة النفايات البالغة قيمتها مليار دولار
Travels in the Billion-Dollar Trash Trade

Bloomsbury Press, New York, 2013, 304 pp., $27.50 (cloth).

نعرف من أفلام الرعب السينمائية أن مصاصي الدماء يحوِّلون ضحاياهم إلى مصاصي دماء جديدين عن طريق عضهم. ويقدم كتاب آدم مينتر مثالا مشابها للضرر البيئي الذي يتسبب في تحويل المواطنين الأبرياء إلى ملوثين للبيئة. وفي هذا العرض الأدبي للسفر في عالم النفايات، الذي يستعرض صناعة المخلفات (السكراب) العالمية، يقوم المؤلف بزيارة مدينة «وينان» (Wen'an) الصينية. وتعد مدينة «وينان» مركزا لصناعة المخلفات البلاستيكية. فالنفايات البلاستيكية، ليس فقط من الصين وإنما من الولايات المتحدة وأوروبا أيضا، يتم إعادة تدويرها في هذه المدينة – في عملية تعرض الصحة العامة للمواطنين للخطر. وتنتشر في هذه المنطقة احتمالات الإصابة بسموم الانبعاثات البلاستيكية والجلطات الدماغية وارتفاع ضغط الدم وانخفاض متوسط العمر المتوقع.

ويتذكر مواطنو «وينان» كيف كانت مدينتهم أرضا خضراء بهيجة تشتهر بأشجار الخوخ والجداول المائية الصافية. لكن التلوث الصناعي الناجم عن صناعة النفط غير المنظمة أدى إلى تسميم التربة واتساخ الجداول المائية، فلم يعد بإمكان المزارعين زراعة محصولاتهم، ولجأ السكان إلى العمل في مجال المواد البلاستيكية من أجل البقاء اقتصاديا. ويذكر مينتر أن هذه المدينة هي على الأرجح أكثر الأماكن الملوثة التي زارها على الإطلاق، وأن جانبا كبيرا من المواد البلاستيكية يأتي من موطنه، الولايات المتحدة.

وآدم مينتر صحفي مقيم في مدينة شانغهاي الصينية، وكان والده يعمل في تجارة المخلفات (السكراب) بولاية منيسوتا الأمريكية، وهو من محبي ساحات تجميع المهملات ويعتز بعمله الذي يغطي مجالات التخلص من النفايات. وبينما يعمل البعض على حماية الحيتان والدببة، فإن مينتر يدافع عن ساحات المهملات كأحد عناصر جمال كوكبنا. ومع ذلك، رغم أن كتاب «كوكب المهملات» ليس قصة رعب عن البيئة، فإنه لا يدخل ضمن نوعية الكتابات التي تروج لجهود الاخضرار باعتبارها الحل لكل مشاكلنا. ويعد هذا الكتاب دراسة متروية لأعمال إعادة التدوير، يتضح من خلالها أن إعادة التدوير رغم أهميتها الكبيرة وأنها عمل يجتذب رواد الأعمال المبدعين، فإنها حتما عملية قذرة ومدمرة أيضا.

وإعادة تدوير المواد هي عملية توفر الطاقة. فالمواد مثل الألمنيوم على سبيل المثال تحتاج إلى طاقة هائلة لإنتاجها من المواد الخام، لكنها تحتاج إلى قدر أقل كثيرا من الطاقة إذا ما تم الحصول عليها من المخلفات. ويشير مينتر أيضا إلى أن التنقيب عن المعادن غالبا ما يؤدي تهجير المجتمعات وتدمير النظام البيئي. ولعل الأمر الأكثر إثارة للجدل، أنه يعترض على الرأي القائل بأن قيام الولايات المتحدة وأوروبا بشحن المخلفات إلى الصين هو بالضرورة تصرف استغلالي. ويذهب إلى أن الشركات الصينية حريصة على الحصول على هذه المخلفات لأنها توفر لها المواد الخام لقاعدة الصناعة التحويلية الضخمة لديها. ورغم بعض الأمثلة ومنها مدينة وينان، فإن اعتماد القواعد التنظيمية والأساليب الفنية المحسنة في عملية استخراج المواد من المخلفات تجعل هذه الصناعة أقل ضررا.

ومع ذلك، بينما يتضح إعجاب مينتر بمختلف تجار المخلفات الذين يجري معهم المقابلات ويصاحبهم في السفر، فإنه يذكر أن عمليات إعادة التدوير لا تخلو أبدا من التكاليف البيئية. (ويرى أننا عندما نضع العلب المعدنية في صندوق لإعادة تدوير المخلفات فإننا نشعر بالاعتزاز، لكنه يقول إننا بذلك نعهد ببساطة لآخرين في الخارج بمهمة التعامل مع مخلفاتنا. والأسوأ من ذلك أنه يستشهد بدراسات علمية تبين أن إعادة التدوير تجعلنا أكثر إنتاجا للمخلفات).

وإعادة الاستخدام أفضل من إعادة التدوير، وعدم الاستخدام في المقام الأول هو الأفضل في جميع الحالات. وبينما قد يقرأ البعض كتاب «كوكب المهملات» باعتباره احتفاء بفكر السوق، فهو أيضا نقدا لفكر الرأسمالية غير المكبوح. وبالنسبة لكل صاحب مشروع إعادة تدوير هناك منتج ما كان ينبغي التخلص منه أساسا – ولكننا إذا فعلنا ذلك سوف نحقق الربح لأصحاب شركات

لعل الأمر الأكثر إثارة للجدل، أنه يعترض على الرأي القائل بأن قيام الولايات المتحدة وأوروبا بشحن المخلفات إلى الصين هو بالضرورة تصرف استغلالي.

الصناعات التحويلية. ويعرب مينتر بقوة عن رأيه بضرورة قيام المصنعين بصناعة منتجات تكنولوجية تعيش لفترات أطول ويمكن إعادة توظيفها بدلا من التخلص منها، حتى نحد بدرجة كبيرة من الضرر الجماعي الذي نلحقه بالبيئة.

ويذكرني آدم مينتر بخيرة الاقتصاد إلينور أوستروم، أول امرأة تفوز بجائزة نوبل في الاقتصاد (راجع «شخصيات اقتصادية» في عدد سبتمبر ٢٠١١ من مجلة التمويل والتنمية). فقد عكفت على دراسة ما يعرف باسم «مأساة الأراضي المشتركة» (tragedy of the commons) وتوصلت إلى أنه، بعيدا عن مأساوية القصة، غالبا ما يكون أفراد المجتمعات المحلية هم من يحرصون على حماية الأراضي المشتركة. وبدلا من الإيمان بنموذج رمزي لمصير البيئة، خرجت أوستروم عن المسار المعتاد وتناولت في دراستها الطرق المبتكرة التي تتعامل الشعوب من خلالها مع المشكلات البيئية. ويتمتع مينتر، رغم أنه من خارج المجتمع الأكاديمي، برؤية مشابهة لرؤية أوستروم، فيسأل الناس عن الطرق التي اتبعوها للنجاح في مساعيهم، رافضا الأفكار السائدة مسبقا مع تفضيل المعرفة العملية، ومبينا أن الحلول السهلة غالبا ما تكون مبسطة.

إن كتاب كوكب المهملات كتاب شيق وممتع، فهو رواية أكثر منه مادة كتابية جافة، ويزخر بالرؤى المتعمقة الكامنة. فلا حرق النفايات ولا ردمها هو الحل القابل للاستمرار لما نعاني منه من إدمان واضح لإنتاج النفايات، ولا إعادة التدوير أيضا هو كما يبدو البديل الأخضر دائما.

ديريك وول
المنسق الدولي، مجموعة «غرين بارتي» في إنجلترا وويلز
ومؤلف كتاب: The Sustainable Economics of Elinor Ostrom (اقتصاد ايلينور أوستروم القابل للاستمرار)

مشورة تقليدية للاقتصادات الحديثة

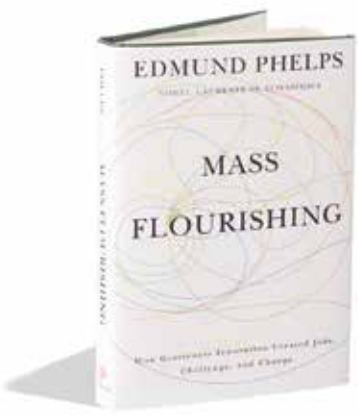

إدموند فيلبس
Edmund Phelps

الازدهار الجماعي
Mass Flourishing

كيف أدت الابتكارات الشعبية إلى استحداث فرص عمل وتحديات وتغيير
How Grassroots Innovation Created Jobs, Challenge, and Change

Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 2013, 392 pp., $29.95 (cloth).

يكرس إدموند فيلبس كتابه الجريء والاستثنائي ليكون بمثابة منهج للعصر الحالي، وإعلان بديل للرأسمالية. وتسري في الكتاب نغمة تفاؤل في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تكون النغمة مشاكسة أو استفزازية. ويُعلي المؤلف من شأن القيم والمبادئ التي وضعها الفيلسوف اليوناني أرسطو، والاعتقاد بأن الهدف الأسمى لأي نظام اقتصادي عصري ينبغي أن يتمثل في المذهب الفلسفي اليوناني «اليوديمونيا» (eudaimonia) – الذي يترجم غالبا بأنه مذهب السعادة، وإن كان يعني، من وجهة نظر كثير من الكتاب المعاصرين، مذهب الازدهار المتطور. ومن العناصر الأساسية التي يقوم عليها الكتاب أيضا مذهب الحيوية (vitalism)، أي الدافع للابتكار – وهو عنصر أساسي من وجهة نظر فيلبس بالنسبة لأي اقتصاد عصري.

ويرى فيلبس أن أوروبا في القرن العشرين أولا ثم الولايات المتحدة بعد فترة الستينات انتشر فيهما ما أسماه مذهب «سيطرة المؤسسات» (corporatism): أي اتساع نطاق القطاع العام، وزيادة برامج التحويلات والرعاية الاجتماعية، وقوة الاتحادات التي تتعاون مع مجموعات أصحاب العمل القوية والشركات الكبيرة. وتتمثل نتيجته في انتشار البيروقراطية وأسلوب الحياة الذي يقلل من قيمة الابتكار. ويبالغ المؤلف في إحدى مراحل الكتاب بما يذهب إليه من زعم بأن أميريكا تعاني من نفس المشكلات التي تمر بها اليونان المعاصرة.

ويعد كتاب «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية» *(Capitalism, Socialism and Democracy (1942))* للمؤلف جوزيف شومبيتر أكثر المؤلفات المشابهة لهذا الكتاب. فعلى نفس غرار ذلك الكتاب، يعلن كتاب «الازدهار الجماعي» رفض التصنيف البسيط القائم على الطيف السياسي التقليدي. ولا يتعاطف مع أنصار دولة الرعاية من الجناح اليساري ولا مع القيم التقليدية، التي يقصد بها فيلبس على ما يبدو الارتباط بالقيم الأقدم غير التجارية، كالإيثار. وفي أحد أقسام الكتاب الذي يتناول التحليل التجريبي، يحاول فيلبس أن يبين كيف أن المجتمعات التقليدية، مثلا، هي رمز لانخفاض مستوى القناعة الوظيفية، ويعتبر أن استمرار القيم التقليدية بمثابة مصدر نزعة خطيرة لتطبيق مذهب «سيطرة المؤسسات» في الاقتصادات المتقدمة.

ويقدم الكتاب في كل جزء من أجزائه زاوية مختلفة تتعلق بالقدرة البشرية على الابتكار: فهناك مسح لتاريخ الاقتصاد يبرز الأساس «الذي ينطوي على المغامرة» في سرعة النمو الاقتصادي على مدار القرنين الماضيين؛ وهناك جزء آخر من الكتاب أكثر تركيزا على علوم الاقتصاد يقدم تحليلا لأداء ثلاثة مذاهب مختلفة (لا سيما بالنسبة للقناعة الوظيفية) هي الرأسمالية والاشتراكية وسيطرة المؤسسات؛ وأخيرا، هناك قسم يتناول المفاهيم الفلسفية، أو النظرية، ويحدد السمات المختلفة لمذهب الرأسمالية أو العصرية ويقارنه بمذهب التقليدية.

ويرى فيلبس أن أنصار مذهب التقليدية يخشون التغيير والأزمات، وأنهم متواجدون بدرجة مفرطة في المنظمات الحكومية والدولية. ويذهب أحيانا إلى التعبير عن الاختلاف في الرأي مع صناع السياسة والنقاد الذين يدعون إلى «النمو المتوازن». ويدعو صندوق النقد الدولي إلى عدم الشعور بالقلق من الاختلالات العالمية وعدم التركيز على منع وقوع الأزمات: فالاعتقاد بخلاف ذلك يبين أن «الصندوق أغفل الأساس المنطقي لإقامة اقتصاد رأسمالي حديث يتميز بكفاءة الأداء».

ويركز فيلبس في نقاشه على الحضارة وكيفية قياسها لتفسير النمو الاقتصادي. لكنه يرى أن هناك تأخرا عن اللحاق بالركب: فقد ظهر «التفكير الحديث» في عام ١٥٠٠، غير أن الاقتصاد الحديث لم يظهر إلا في أعقاب الحروب النابليونية. ويذهب فيلبس في آرائه إلى أن النمو الاقتصادي الحديث لن يتحقق إلا من خلال اتباع توجه جديد يسعى من خلاله الكثيرون (وليس عدد قليل فقط من رواد الأعمال) إلى المغامرة والابتكار.

ويشن فيلبس هجوما عنيفا على آدم سميث (الذي لم يعرب عن تقديره فعليا في عام ١٧٧٦ عن إمكانية التقدم الفني)، وعلى الاقتصاد التاريخي الألماني (لتركيزه أكثر من اللازم على المؤسسات)، وعلى ماكس ويبر (لزيادة اهتمامه بالزهد والتوفير بدلا من «التجريبية، والاستكشاف، والجرأة، والمجهول»)، وعلى شومبيتر (لتركيزه على رواد الأعمال الأبطال، في مذهب المؤسساتية الألماني)، وعلى جويل موكير (لإصراره أكثر من اللازم على العلوم و«الثورة الصناعية»). وتمشيا مع توافق الآراء بين مؤرخي الاقتصاد الحديث، فإن العالم قبل عام ١٨٠٠ كان يعتبر ساكنا إلى حد كبير، مع قدر محدود من النمو الكبير في الدخل. لكن من المستغرب أنه يتجاهل التفسير الحديث الأكثر شيوعا للتحول الذي طرأ بعد عام ١٨٠٠ – أي إحلال الطاقة المستمدة من الموارد الطبيعية، وأهمها الوقود الأحفوري، محل الطاقة البشرية والحيوانية.

ويختتم فيلبس باستنتاج مذهل ومبهج يسمح بتعددية نظم القيمة. فسوف يختار البعض الحياة بالقيم الحديثة (التي يفترض أن تتضمن قدرا من إعادة التوزيع لضمان الناتج العادل)، وإن كان هناك من سيفضلون التقليدية (الالتزام بالأسرة أو المجتمع). ولا يفترض في النوع الثاني أن يستفيد من أي من مفاهيم عدالة إعادة التوزيع. أما الراغبون في اتباع ما يعتبره فيلبس مفهوما غير مرتبط بمذهب أرسطو للحياة الطيبة فينبغي استبعادهم من مبدأ لإعادة التوزيع يستند إلى مناقشات جون رولز حول المساواة الاجتماعية (لأنهم غير شركاء في إنتاج فائض اجتماعي يمكن إعادة توزيعه»). ويهدف هذا المنحنى الاستثنائي إلى إظهار كيف أن التقاليد لا يزال من الممكن استيعابها في عالم يتسم بالحداثة. لكنه لا يتوافق جيدا مع الانطباع العام الذي يتركه الكتاب، وهو تحديث لرؤية شومبيتر لديناميكية الاقتصاد الحديث المدمرة لذاتها.

هارولد جيمس
أستاذ التاريخ والشؤون الدولية
جامعة برينستون